حقيقة الذات والسعي وراء تحقيقها

يبدو أننا في زمنٍ أرغمنا على تجاوز التقديم الكلاسيكي أو الرومنسي لأي طرح ممكن ولا أدري أهنالك من طرح يمكن أن يكون في زمن الدماء والأشلاء يوفق ما اعتدنا عليه، أمن رومنسية يمكن أن تكون على صفحاتنا سوى من أولئك الذين كلما تلونا عليهم نبأ قتلانا في القصف وضعوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون الحق، ومنهم من يؤمن أن الحق مع الآخرين ويرددون على مسامعنا أننا السبب في هدر دماء أطفالنا ونحن بدورنا نجيب كعادتنا بكل ببساطة (نحن لم نرد ولم نحلم سوى بحياة كالحياة...!) وسنبقى نحمل هذا الشعار بقلوبنا ما استطعنا الى ذلك سبيلا

أن أدب الكتابة والسعي وراء المعرفة بعد الربيع العربي بدأ يتشكل طابعه الثوري الرافض للعملية البيروقراطية التي تحكمها مؤسسات إقطاعية برجماتية مما جعل الشباب العربي يطلق العنان لقلمه وفكره لاختراق الممانعة الفكرية المتواجدة في عالمنا العربي، ولطالما كانت هذه التوجهات وهذه الممانعة تأتي من خلال ضغط لمؤسسات إمبريالية غربية

ولعل قبس من أكبر آباء العلمانية والحداثة الغربية يوضح بشكل مباشر أسباب كتابتنا والممانعة لها وطبيعة صراعنا فضلا أنه يحدد مجال صراعنا الفكري والوجودي فكيف بنشاطنا الفكري والثقافي.

يقول نتشيه:

" ان الانسان المنحط يخضع للسنن والشرائع المتناقضة فإذا شئت أن تزرع فيه الفضيلة فعليك أن تسلخه عن حياته إرغاما وتسوده طغيانا"

هذه المقولة ليست نصيحة من نتشيه الى الإنسانية بل هي شريعة يريد نتشيه للغرب أن يتحلى بها ولطالما تم وصف نتشيه بأنه الأكثر اخلاصا لبناء النموذج الغربي الحديث ولطالما كانت الحركات الأكثر تطرفا في الغرب تستقي شرائعها ونظرياتها من خلال هذا الفيلسوف إن صح وصفه، لذا فنحن مجبرون أن نوضح أننا لسنا منحطين لأن المنحط في مجال الفكر الغربي ليس سوى أداة يجب استغلاله لأجل مصالح الغرب ولطالما أبدع مفكرونا وغيرهم في توضيح حقيقة رؤية الغرب بأنهم لا يروننا سوى أدوات يجب استخدامها لأجل رفاهية (الانسان الغربي الحديث) وهو الانسان المتفوق الذي يستحق الحياة كما يدعي نتشيه وهذا الغربي عليه أن يسود المنحطين بسلخه عن حياته وأن يسوده إرغاما وطغيانا، فكم أتمنى أن لا نرى منحطين من أبناء أمتنا، ولعل من واجب من لا يريد هذه الصفة أن يبحث عن الحقيقة ويعمل لأجل حضارة أمتنا الإسلامية وببناء شخصيته ونفسه بما يليق لمستوى مسؤولية الصراع وعمقه.

مقدمة: ـ

يعلم الكثير من أبناء أمتنا أننا في عالمنا العربي الإسلامي نعيش في ضل خداع كبير وأوهام كثيرة تتستر بغطاء مفاهيمي ذو قيم إنسانية او حضارية كالديمقراطية وشعارات الإنسانية والحرية والنقود (الأوراق النقدية) والكثير من القضايا الأساسية التي تهم النشاط الإنساني، واليوم أرى أنه لا بد من تسليط الضوء على خدعة أخرى في مجال أكثر خطرا وأكثر عمقا وتركيبا على الوعي الإنساني وتتستر ضمن هالة علمية يشيد بها الكثيرون ولطالما كان من واجب الانسان القلق على هذه الهوية الحضارية (الإسلامية العربية) أن يزيل الستار ويبحث عن الحقيقة فوجدت أنه لا بد من التعليق على موضوع مهم جدا ويكاد يحتل الركيزة الأساسية عند بدء الفعالية الاجتماعية لدى الشباب المسلم والتي هي من أهم ما يجب بناؤه وتوجيه ، وأقصد هنا قضية (البحث عن الذات) ولطالما اوقفتني فكرة الفعالية في فلسفة المفكر الكبير مالك بن نبي فضلا عن بديهية أهمية هذه الفكرة في عملية بناء المجتمعات أو السلوك للفرد.

قد يعتبر البعض أن الماتركس أو الحياة الإلكترونية أو كهف افلاطون نظم حياتية ممكنة رغم غرائبها ولكنني على يقين أنه لا يوجد ما هو أغرب من واقعنا!

وتكاد الأسئلة في موضوع الذات والبحث والجري ورائها تنحصر بشكل أساسي في عدة أسئلة ولعلها غالبا ما تأتي بشكل متداخل

هل هنالك ذات مميزة حقيقية لدى كل منا؟

هل نموذج الذات مميز ام انه موضوعي؟

وهل يتم يناء الذات على أسس ذاتية (نظرة ذاتية) ام اعتبارات موضوعية فضلا عن المعايير والقيم لهذه الموضوعية؟

وما هي الأدوات الممكنة لبناء الذات الحقيقية؟

وما هي جملة المعايير التي يحتكم لها المرء لقياس النموذج الذاتي؟

وهل هنالك فكرة للذات الحقيقية وأخرى خدعة؟

ومن بين ما هو صحيح لفكرة الذات ما هو النموذج الممكن الضروري لهذه الهوية (الإسلامية العربية)؟

بالنسبة لي أرمي من خلال كتاباتي تأكيد ما أؤمن به وبشدة (أن رحلة البحث عن الذات وفكرة الذات ما هي إلا اسطورة من الأساطير التي يؤمن بها الانسان) بمعنى آخر أنه لا يوجد ما يعزز فكرة وجود الذات المميزة فضلا عن تحقيقها.

لا شك أن المعجم المفاهيمي المنوط بالهوية (العربية الإسلامية) لا يختلف عن واقع جغرافيتها فهو مشوه جدا، لذا فإنني استخدم المفاهيم بأبسط صورها في الوعي، فنحن لا نعالج المفاهيم بقدر ما نؤكد على ضرورة تأكيد فكرة قابلية العلاج

(لا يوجد ذات مميزة هنالك ذات واحدة موضوعية)

مفهوم الذات؟

من أصعب الأمور في هذا المجال هو اختزال حقيقة التعريف لذا أجد أنه لا بد أن نتفق على أبسطها، لنبتعد عن الجدل الفلسفي لجموع المدارس التي تعطي تعريفا مبررا لها.

يكاد يتفق الجميع أن مفهوم الذات يختلف من مجتمع لآخر ومن شخص لآخر ولكنني أتفق أن من أبسط المفاهيم للذات هو جملة النظم المعرفية بكافة الجوانب التي تحكم النشاط الانساني والتي تؤطر حياته وتعطيه المقدرة على الإجابة في أي وقت عن السؤال (من أنا)! وهنا دعونا نقف وقفة متأنية وسأعبر عن هذه الوقفة كما لو أنها حديث داخلي

من أين جاء هذا السؤال، من الذي يسألني، هل هنالك أنا مجازية وأخرى حقيقية، كيف لي أن أسأل عني (يكاد الأمر ينافي المنطق) هل هنالك مستويات فكرية أسمى من الدماغ ما هي مصدر سلطة هذه الأسئلة فضلا عن إدراكها!

ما مصدر هذه السلطة التي من الواضح أنها أسمى من الدماغ ومن الوعي واللاوعي الذي يختزل الوعي الحقيقي الكامل للإنسان. فكما يقول العلماء أن الوعي الكلي يشتمل على فرعين الواعي واللاوعي في الدماغ.

ولماذا لا يمكننا اغفال هذا السؤال واعتبار أنه غير منطقي وأنه من الأسئلة المضحكة التي تحاول العبث بإدراكنا، لماذا كل إنسان مرهون بالوقوف والتعاطي والسعي وراء هذا السؤال وكأن وراءه قوى سحرية غامضة ولا نملك سوى البحث عن الإجابة والوصول لها.

كل هذه الأسئلة سنحاول تبرير إجاباتها الموضوعية بعد مقدمة بسيطة توضح حجم الفوضى الفكرية عند الشروع بالكتابة في هكذا مضمار ولعل أبرزها توضيح العقبة الأولى أمام (فهم الذات) وهو فكرة الواقع.

كثيرا ما كنت أصف العلوم الحديثة بالخبيثة التي تأخذ على عاتقها بناء النموذج الإنساني الأفضل لهذا الواقع (لأجل الواقع وليس للإنسان) فنحن كما نعلم أن أساس الفوضى الحاصلة هو أن الانسان لا يقوم بدوره كركيزة للوجود بمعنى آخر أنه لا يصنع الواقع بل أصبح الواقع هو المنعكس على الانسان بعكس الحقيقة المفترضة أن يكون الواقع انعكاس لوعي الانسان، هذا الوعي الذي يتحقق بأدوات عدة كالإنسان المسلم الذي تشكل الوعي لديه من خلال رسالة الإسلام

وأقصد بهذه العلوم هنا مجمل المنهجيات التي تبحث بناء الذات والنجاح والتخطيط والبحث وإيجاد الذات وتبحث أيضا مسائل النجاح والتفوق الشخصي الممكن.... باختصار تلك التي تقوم ببناء نموذج ما يلبي حاجات الواقع وتُعنى ببناء الشخصية أو الذات!

قد يلمس القارئ أن البنية الأساسية الممنهجة في صياغة بناء النموذج (للذات) لا تكمن بداخل صاحبها بل هي بكل ما فيها من احتمالات تأتي من خلال ما يعرف بالواقع أو البيئة أي انها من مصدر خارجي.

فكرة الواقع

لا شك أن مفهوم الواقع من المفاهيم السرمدية على الأقل في حاضرنا والتي تحتاج لمدرسة فكرية تعالج هذا المفهوم بشكل شمولي فضلا عن أسلمته كما أنه ليس من المفاهيم المطلقة بل هو نسبي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبية الأيديولوجيات وتعدد الديانات والبيئة، ومن المقولات التي تبرز لنا أهمية فهم الواقع هو علاقته بالفكر كما يعبر عن هذا بورجيه بقوله:

"يجب علينا أن نعيش كما نفكر والا اضطررنا عاجلا او آجلا أن نفكر كما نعيش"

البعض من اللذين يعيشون وفق شرائع متناقضة حسب قول نتشيه لا يرون اطلاقا أي خلل في هذه المقولة مع أن هذه المقولة وبكل بساطة هي حجر الزاوية والسؤال الأول لبحث فكرة (المعرفة وبناء نظرية المعرفة والسلوك) ولسنا بصدد تفكيك هذه المقولة والظواهر أو الثنائيات التي من المكن أن تنشأ عنها، ولكن من الضروري جداً أن نعيش كما نفكر والا فقدنا انسانيتنا (وفضيلة البيان كما جاء في سورة الرحمن)جملة وتفصيلا فضلا عن الهوية وأصبحنا عبارة عن روبوتات آلية يتم برمجتها من خلال الأنظمة التي تحدد عيشنا كما هو وضعنا الحالي فلا يخفى علينا أن النظم الرأسمالية والامبريالية وتغولها استطاع تحديد نظم العيش إرغاما وطغيانا.

وللقارئ العزيز أن يعود لرؤية برنامج وثائقي أو نشرة إخبارية أو لقراءة كتابات المسيري وغيره الكثيرين في الحداثة والرأسمالية والعلمانية ليرى عمق تنميط عيش المجتمعات من خلال الحضارة الغربية لدرجة أن وصل الامر لتحديد وتنميط أكثر السلوكيات خصوصية لدى المجتمعات جميعها ولعل الغرب الأقل تأثرا في فكرة التنميط وأكثر رضى من غيره ونحن كما المجتمعات الأخرى نجحنا لمستوى ما بالتقدم للعيش وفق هذا التنميط!

وليس من السهل في زمننا هذا أن نجيب هل ما يعرف بالواقع الحالي حقيقي أم أنه كذب وافتراء؟ وهل هو نتيجة منطقية لمسيرة التاريخ وهل هو إبداع إنساني أم أنه إبداع براجماتي؟ ولماذا نرى أن شباب أمتنا يطالبون بإعادة قراءة التاريخ ويرون ضرورة تجديد الفقه بالدين؟ والكثير من الأسئلة التي تدور حول البنية الأساسية لفكرة أعادة الحضارة والهوية؟

إن غالبية الأسئلة الثورية التي تدعو للتغيير والتجديد والإصلاح هي تعبر وبشكل قوي على إعادة تشكيل واقع يمنح لهويتنا حريتها وغائيتها فضلا عن تحققها، وهي بصورة أخرى تبرر الحالة الثورية وفوضويتها أحيانا.

أن الإجابة عن هذه الأسئلة ليس بالأمر الهين ولكن على الأقل نحن نؤمن بأن ما يعرف بالواقع الحالي غير قادر على احتضان هويتنا والتي لبلورتها لا بد من عدة تساؤلات لتحديدها تبدأ بالعنصر الأولى وهو الفرد أو ما يعرف بالذات وهو ما نحن بصدده من موضوع.

رحلة البحث عن الذات

" نحن محمولون على أن نعرف لأننا محمولون على أن نحيا، فالمعرفة شرط الحياة" المفكر السوري/احمد حيدر

دائما ما نغفل عن تلك اللحظة قبل القيام بالممارسة الأزلية وهي "الادراك" أن نقف على الحياد والحياد التام قبل ممارسة هذه الصفة الإنسانية المميزة!!

تبدأ رحلة البحث عن الذات في مستوى معين وهو المستوى الذي تفرضه الحالة الفسيولوجية والبيولوجية على الفرد أن يلبي متطلباته هذه المتطلبات التي تنشأ نتيجة تفاعل داخلي في أعماق الانسان مما يخلق أفكار داخلية تحيله لفرضها على واقعه الخارجي وافتراض آلية تفاعل بصورة ما وقد وضع علماء الفسيولوجيا الأبواب الأساسية لمراحل الانسان والتي هي في حقيقة الأمر تنطوي على اعتبارات جسدية ونفسية وقد وضعوا أيضا عدة فصول تحتوي الاحتمالات الممكنة التي ستشكل النماذج لشخصيات الأفراد فيما بعد، ونحن لا نعاني من فوبيا المنهجية العلمية التي يتبعها العقل الغربي ولكننا نشكك في الغائية وراء هذه العلوم فضلا عن المعايير والمرجعية، وهذا الشك يحملنا على التصدي لأي تشوه يمكن أن يصيب هويتنا فضلا عن كشفه لغاية تحقيقها وهذا الشك ناتج بالضرورة عن التساؤلات التي يلقيها الشباب العربي المسلم والتشوه الذي يصيب عملية التقدم والابداع على مستوى العالم وهذا التشوه هو أحد أبز أسباب غياب هذه الهوية من الابداع والتقدم.

وفي ضل غياب تأثير تاريخ هويتنا وابداعنا العقلي في بناء نظريات المعرفة والعلوم بكافة جوانبها وسيطرة العقلية والحضارة الغربية على مناحي الحياة أصيبت هويتنا بتشوهات

كثيرة فما أن ننهض لتحقيق مصالحنا وبناء حضارتنا حتى نكتشف أننا نحيا بين سندان غياب الهوية المبدعة في التاريخ وصاحبة الرسالة ومطرقة الغرب الامبريالي الذي يبني واقعا عدميا لا يسمح بتشكل تلك الذات ويفرض فعالية معينة، وهنا لا أقصد أن حيز الذات أو مجال نشوؤها محكوم بحيز التفاعل بين الانسان والواقع ولعل هذه الآلية هي ما نراها في نشاطنا وهو السبب الذي يؤدي الى غياب الكفاءة وتبديد الطاقات حتى الثورية منها.

وقبل الخوض في هذه المعركة التي تدور رحاها في عقلية شبابنا يجب القيام بتوضيح فكرة الذات والعودة الى الطرح البسيط لنكشف أسباب الخلل.

فكرة الذات

إنني مؤمن أن إشكالية الامة ليست بعقلها بل في عاطفتها، ونجاحها مرهون بدرجة إخلاصها

قد تتداخل بعض المفاهيم ذات الدلالة الواحدة كما هو حالنا بموضوعنا فمفهوم الأنا والنفس والذات تتفق مع حاجة السؤال ولكن لكل مفهوم من هذه المفاهيم سياق تاريخي خاص به ونظام معرفي ذو طابع مميز ففكرة الأنا نرى أنها تستخدم في النظم المعرفية الغربية وفكرة النفس متواجدة في الخطاب الإسلامي وأيضا نرى أن فكرة الذات أصبحت من أكثر المفاهيم علمية وعالمية مما جعل غالبية العلوم التي تعتمد على تنمية وكشف وتحقيق الذات ترتكز على هذا المفهوم خصوصا علوم التنمية البشرية، ولعل أكثر الأدوات استخداما في بحث هذه المفاهيم هو مفهوم الأنا لقرب هذا المفهوم من وعي الانسان ولعل فلسفة فرويد وادواته الفكرية أكثرها سلاسة وعمقا في بحث هذه الإشكالية وتوضيح العناصر الملازمة لفكرة الذات.

قبل استخدام التحليل الفرويدي الأكثر انتشارا واندماجا في المناهج العلمية نقف قليلا على فكرة النفس أو الذات في الإسلام وإنني أرى أن هنالك تشابها في الدلائل فضلا عن اعجازية وتفوق القرآن في بعض المكامن العميقة.

فالنفس بالإسلام كما وضحها تبارك وتعالى ذكرت بأصناف ثلاث هكذا يعبر الكثيرون ولكنني لا اعتبرها أصناف بل مستويات وهذا الخطأ ستحدده ثمرة اجتهادي وهي النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة

وتعتبر النفس الأمارة بالسوء الأقرب الى مادية الانسان وبشريته بحكم علاقتها المباشرة بالوجود المادي والغريزي للإنسان ونرى أن مجال تفاعلها يتعلق بشهوات الانسان وميولها لذا فحيز تفاعلاتها يجعلها عرضة بإلحاق السوء بالإنسان. (فألهمها فجورها وتقواها) أي أن الله تعالى قد وضع تعاليم تجعل هذه النفس تكتسب الخير والتقوى وبين لها أسباب الفجور والظلال وتعتبر هذه النفس الأساس في التفاعل الفسيولوجي عند الانسان وستتوضح أكثر في سياق التعامل مع المفهوم وفق التحليل الفرويدي.

والمستوى الآخر من النفس هو اللوامة ولو تأملنا هذا اللفظ القرآني لوجدنا أن هذه النفس بالفعل أعلى من مستوى النفس الإمارة بالسوء فاللوم لا يحدث الا عندما يكون هنالك مصدر وشيء ما يجعلك تلوم نفسك فهذه النفس هي المرتبطة بالحياة والنشطة والمتفاعلة مع الوجود وهي التي تحاول أيجاد ذاتها بشكل متوازن ومما يؤكد سعيها للتوازن وتحقيق شخصية الانسان الآية الكريمة (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ففكرة الذات تدور في فلك هذا المستوى كما هو الامر بالنسبة لفكرة الأنا، فالله سبحانه وتعالى لا يقسم بهذه النفس الغير متزنة والتي دائما ما تكون مضطربة ما بين وبين كما لو أنها بحالة صراع مستمر، وفكرة التفاعل ليست كامنة في داخل الأنسان بل هنالك تأثير واضح مصدره الخارج كالطبيعة والكون والحيوان وغيره فكلها مؤثرات تدعوا للتفاعل ضمن كافة المستويات فمنها ما يحدد تفاعلا مباشرا مع المستوى البيولوجي او

الفسيولوجي فتلوم نفسك إن قتلت حيوانا ما وتلومها إن لم تقتله أحيانا ومسالة الاختيار منوطة بالمستوى الثالث من النفس

والحالة المستمرة للنفس اللوامة يجعلنا نرى أن المستوى الثالث من النفس حتما هو المطمئنة التي ارتضاها الله تعالى وخاطبها (ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وهذا المستوى الثالث يؤكد المستوى الثاني وهو اللوامة وهذه النفس تكتسب فكرة اللوم من خلال حالة النفس المطمئنة المرتبطة بالفضيلة والمعيارية والأقرب للروح بعكس الامارة بالسوء المرتبطة بالشهوات والمستوى الحيواني أو الغرائزي وما بينهما تكمن الحالة الذاتية للإنسان في صراع مستمر بين مستوى مادي حيواني وآخر خلاق إن صح التعبير.

رغم بساطة الطرح في هذا المقال الا أن التأمل العميق بهذا الاعجاز يفسر قسم الله تبارك وتعالى بالنفس بشمولية المعنى بقوله في سورة الشمس (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) وكأنما تبارك وتعالى بهذا القسم سبحانه يؤكد إعجازية هذه النفس ومدى حجمها وثراء معناها.

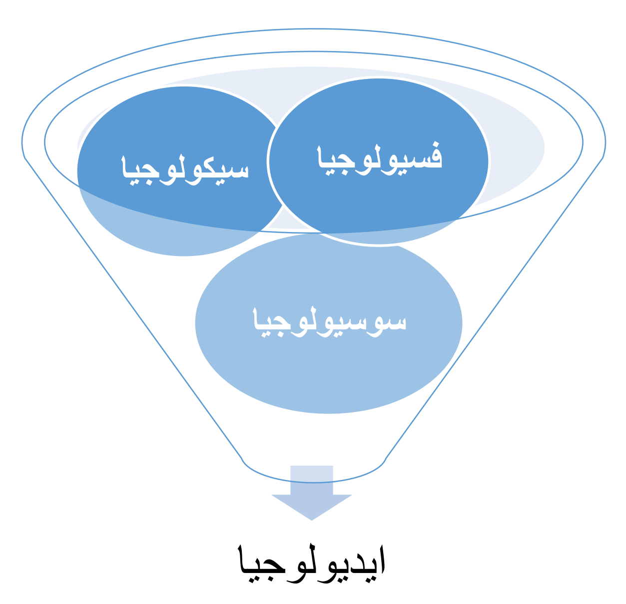
ونعود الى طرح القضية مرة أخرى حسب المفاهيم العلمية لنكشف عن الشبهة في هذه القضية وتبرير موقفي سابق الذكر من فكرة الذات وتحقيق الذات وتنمية الذات؟ فساذج من يضن أن فكرة الذات التي يتم طرحها والسعي ورائها في السياق الواقعي هي نفس الفكرة الإسلامية ولو كان الأمر كذلك وبهذه البساطة فلم كل هذه الفوضى ولم كل هذه التساؤلات والاختلافات؟ للأسف نمارس أحيانا (التقية) فنظهر غير ما نبطن ونظن بأنفسنا الخير غالبا بصورة لا واعية ونقوم بأسلمة وعينا في حين أن حقيقة الأمر غريبة وبعيدة كل البعد عن الوعي الإسلامي.

ففكرة الذات التي يعبر عنها غالبية الشباب أو الأنا بحد ذاتها فكرة غربية وجدت في سياق الوعي الغربي هذا الوعي العلماني الذي قام بفصل كافة المفاهيم عن أي قوى خارج الانسان أو الطبيعة بمعنى آخر أن هذا الوعي تشكل برفض مسبق لأي ميتافيزيق.

وبحسب التحليل الفرويدي يذهب الى تفسير أن النفس أو الذات لها ثلاث مستويات وهي (الهو، والانا، والانا الأعلى) ويرى فرويد ويتفق معه السياق العلمي أن الهو يحتل المستوى الأدنى حيث أنه مرتبط بشهوات الانسان والمستوى الحيواني وبالحيز الفسيولوجي الذي يتفاعل مع الوجود المادي كالغذاء والجنس وبأن الهو غرائزي ومكتسب أي أنه يكتسب مقدارا ما من التوجيه وهو ما يكون عليه الطفل الصغير مع والديه فالتربية تقوم على أساس توجيه الهو حسب المعتقدات او الأيديولوجيات، ونرى في الخطاب الإسلامي أن التوجيه يعتمد على الأسرة والمجتمع وسنة الحبيب المصطفى عليه السلام مليئة بدعوته بتحقيق هذا التوجيه والغائية منه وأهميته ويترتب على الأسرة جزاء ما تصنع، وفي الحالة الغربية نرى أن هنالك مؤسسات وظيفية فضلا عن الإعلامية تحقق نفس الوظيفة.

والمستوى الاخر وهو ما ندور حوله هو فكرة (الأنا) وهي المستوى الواقعي الذي يحقق فيه المرء شخصيته ويتفاعل مع الوجود وهذه الأنا تنشأ ضمن صراع مستمر بين الهو والأنا العليا التي هي مجموع القيم الاجتماعية والأخلاقية التي ينشط بها الفرد وتكون الأنا بأرقى حالتها عند نقطة الاتزان أو الحالة المثالية من الاتزان بين المستويين فالمستوى الثالث وهو مستوى القيم الحضارية والأخلاقية او الأيديولوجية (إن وجدت في الحضارة الغربية)

واستطاع الوعي الغربي خلق نظريات معرفية للسيطرة على النماذج البشرية (لتحديد وتوجيه الوعي الكامن بهذه النماذج لخلق واقع ملائم فجاء علم السيكولوجيا لدراسة السلوك الإنساني فضلا عن الفسيولوجي الذي هو الأساس في نشأة سيكولوجيا الانسان أي سلوكه لصياغة رؤية سوسيولوجية (اجتماعية) نابعة من ذاته لذا لا يكاد يوجد مفكر او فيلسوف غربي منذ اليونان الى هذه اللحظة لا يفكر بطبيعة العلاقة بين هذه المفاهيم ومجالاتها فهي الأساس في بناء المجتمع ولكون التغيير هو الثابت الوحيد فأنه وباستمرار تتم قراءة هذه العلاقة بما يحقق الأهداف الأيديولوجية



ايديولوجيا

الفسيولوجيا والبيولوجيا + السيكولوجيا + سيسيولوجيا= أيديولوجيا

صراع تحقيق الذات

ونلاحظ هنا أن الفسيولوجيا والبيولوجيا تقوم على دراسة العلاقة وأسبابها بين السلوك والأعضاء والبيئة بمعنى آخر قراءة وتحليل وتفكيك آلية عمل الانسان كآلة لذا فان هذه العلوم خاضعة للتجربة والبرهان العلمي (فلنتذكر أن ما يعرف بالعلم في الغرب يقوم على أساس مادي والتجربة خير برهان) ومن خلال هذه العلوم وتاريخها استطاع الغرب الكشف عن وظائف الأعضاء والكشف عن الية عمل الانسان وغيرها الكثير ولا ننكر الإيجابيات الكثيرة وراء هذا العلم فنحن هنا نوضح الفكرة العامة التي تدور حولها العلوم الغربية. وهنا فقط أود التذكير بالمختبرات النازية وأفكار نتشيه فكلاهما وضعا الانسان العادي (الغير متفوق) في محل رفاهية الانسان المتفوق وهذه الهالة العلمية التي تدور رحاها في الغرب أعطت المختبرات النازية وغيرها المجال لإجراء أكثر الاختبارات وحشية والممكنة على الانسان بحجة كشف الحقيقة! فضلا أنها بررت أساطير إمكانية بناء الانسان المتفوق والمجتمع المتفوق

إن انهيار الشيوعية كان أمر حتمي وكذلك ستؤول الرأسمالية والإمبريالية لسبب بسيط أنه لا يمكن لأيديولوجيا أن تفرض وحدوية نموذج تفاعلي وحدوي بين الانسان والواقع، فالإنسان باتساع مستمر والواقع محدود

فضلا عن تبرير أفكار الاستعمار والاستعباد وأن كل هذا ينشأ في ضل قابلية وأريحية عميقة في نفوس الغرب على الأقل ديمقراطيا

ومن خلال التفسير الفسيولوجي والبيولوجي يتم إفراز مجموع القيم التربوية والتعليمة لأنشاء نموذج سيكولوجي (سلوكي) ففي مرحلة فعالية الشباب كما نرى تنشأ وتستعر فكرة الذات وتحقيقها والتي يسعى ورائها الشباب العالمي او العولمي والعربي ليس ببعيد وبحكم سيطرة الغرب على مقدرات الشعوب وبحكم أن رأس مال التشغيل والإنتاج ملك لهم مما يولد حتما فكرة وجوب السيطرة الثقافية والعلمية والتربوية على البلاد والذات أو (الانا) بمعنى آخر السيطرة أو بناء النموذج الإنساني المتوافق والمتزامن مع الواقع العالمي الجديد الذي هو في حقيقة الأمر واقعهم هم وما نحن إلا أدوات ونعيش به كظلال.

فعندما يقول شخص ما بانه حقق ذاته او انه يسعى وراءها لنرى ماذا يقصد في حقيقة الامر من خلال نماذج حية، فعليه أن يعرض نتيجته على الرؤى الموضوعية العلمية فعندما ترى بعضا من الشباب يدور وراء الشهوات فقط (سيارات، اتصالات، عقارات، أموال، جنس، ترف....) فهو في حقيقة الامر يخدع نفسه (حين يقول هذا أنا) لأن المستوى الذي يدور حوله نشاطه هو مستوى بالكاد عقلاني وهو الاقرب للحيوانية أو الغرائزية هذا لان معظم الحالات السيكولوجية (السلوكية) التي تطرأ على شخصه ناتجة من حالة الفعل ورد الفعل مع الأعضاء بشكل مباشر وعلوم البيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الاعصاب يؤكد هذا الأمر، فالمتعة والشهرة التي تعتبر أحد أكبر الأسواق في فضاء الرأسمالية تعتبر الثقب الأسود الذي يبتلع الشباب ويبدد طاقاتهم ولطالما تغنى الغرب بمستوى الحرية المتحقق في حضارته بناءا على مقدرته في مسايرة هذا النمط.

فكل سلوك أو مجموع السلوكيات التي يتحلى بها المرء والتي من شأنها ان تغذي حيز التفاعل في هذا المستوى لا تمكن هذا الشخص من التصريح بانه (أنا) وهنا يمكننا التعميم بعبارة أخرى أن أي فرد يدور حول المظاهر والشخصنة أو حسب نظرة الاخرين وتفاعلهم الحسي المباشر الذي من شأنه تغذية المظاهر والدوران حول الأشياء المادية هو مستوى لا يُمكن هؤلاء وإن كانوا مجتمعا أو فردا من وصف حالهم ب (الأنا) أو الذات ، نعود ونذكر لأن الذات أو الانا أو النفس مرهونة بوسطية بين الهو والانا الأعلى حسب الفكر الغربي وفي الإسلام مرهونة بين النفس الأمارة بالسوء والمطمئنة، لذا فالنموذج المادي او اتباع الشهوات والمظاهر في حقيقة الامر يدورون في مستوى أقل من مستوى تحقق الذات او الأنا، بالتالي فهذا الصنف ذو الغالبية العظمى يعيش في ضل فوضى وظاهرة يمكن وصفها بأنها (متطرفة أو شاذة او غير علمية) وبالنسبة لي أمقت هذا النموذج بشكل كبير على الأقل بسبب أنه في غالبية نشاطاته لا يستخدم عقله بقدر غرائزه، والغرب يسعى دائما لتبرير أي تصرف ممكن ضمن حيز التفاعل هذا حتى وصل الأمر لتقنين وتبرير المثلية الجنسية وإننا نتساءل هل قتل آخر ملك بأمعاء آخر قسيس هي الدافع وراء هذا، وأين القيم العلمية التي تؤكدها البراهين والتجارب على أن حيز هذه السلوكيات من شأنه إلحاق الخطر بظاهرة الإنسان.

النموذج الآخر ونراه في كافة المجتمعات وهو لا يقل تطرفا عن سابقه حيث نرى بعضا من الأشخاص يسعون الى إيجاد ذاتهم في مستوى من الشعور متجاوز لتحقق الذات، فكل السلوكيات التي تقود الى مستوى الأنا العليا أو المطمئنة في الدنيا هو موقف وظاهرة متطرفة فعندما نرى أن بعضا من الجماعات الإنسانية الإسلامية والغربية التي تسعى بأفكار التحرر من الذات نحو الملائكية وعالم المثل العليا بدعوى المقدرة على التجاوز المادي كما هو حال الصوفية في الإسلام التي تدعي المقدرة على التوحد او أفكار التجلي لله سبحانه وتعالى وأفكار الحلولية وهي مفاهيم في غاية التعقيد والتفلسف الا أنها في حقيقة الامر باطل ، هذا لأنه وبكل بساطة حيز التفاعل الأسطوري غير موجود في حقيقة الأمر مهما ادعوا، ولا يمكنهم من تحقيق وتحقق الذات أو الانا، وهذا النموذج لديه الكثير من المستويات العميقة الأكثر تطرفا كالحلولية او التواصل الروحي، وهذا المستوى ينقسم الى قسمين قسم اسطوري يدعي أنه يتبع النور وآخر يتبع الشيطان فغالبية أفكار السحر والتواصل مع العالم السفلي نابعة من خلال الحالة الانعزالية او السلوكية التي يضيفها المرء على ذاته ليصنع عالما خاصا به يؤهله للوصول الى مراده ومن الممكن أن يصف البعض نفسه في هذا المستوى بأنه ذات وهذا الأكثر سذاجة، والبعض يرى أنه في مستوى ما مع الحالة المثالية للذات أو الأنا أو النفس اللوامة تتفتح له أبواب السماء ونرى هذه الإجابة لدى غالبية دعاة التصوف في العالم الإسلامي ولا يقتصر الأمر على الإسلام فها هو نتشيه الذي أعلن موت الرب يقول ويصدح بعبارته (كفانا أن نكون من المصلين علينا أن نكون من المباركين) ونرى هذه الإجابة بشكل ملفت للغاية مع باباوات الكنيسة والرهبان فضلا عن اليهود فكيف بالديانات الأخرى حيث يعطون لأنفسهم مقدرة روحية هائلة، ونرى في عالمنا الإسلامي بعضا من الطوائف كالشيعة لديهم نظريات كثيرة نابعة من سوء هذا الفهم للذات حيث أنهم يؤمنون بأن لبعض البشر قدرات خارقة مما جعلهم ضحايا لأدعياء وشيوخ هذه الطائفة.

وقد رأينا ممارسات سلوكية متطرفة كترفعهم عن التفاعلات الفسيولوجية بحكم أنها لا تليق بهم فكيف تستقيم هذه الذات بترفع بعضهم عن الزواج وبأي حجة يدعون علوهم عن الأفراد العاديين أو (الاتباع) وقد ثبت أنهم يمارسون ما يحرمون على أنفسهم بطرق تنافي الأنا العليا ذاتها!

هنا يمكننا التعميم بشكل أكبر أن كل من يسعى لتحقيق ذاته في مستوى النفس الامارة بالسوء (الهو) أو المطمئنة (الأنا الأعلى) لا يؤهله حيز تفاعله الأسطوري هذا من تأكيد واستحضار ذاته فضلا عن تحقيقها.

وهذه التعميمات ليست بفرض لاهوتي أو إسلامي إنما هي حقائق فسيولوجية واجتماعية ولطالما رأينا أدعياء الرأسمالية والعلمانية يرفضون أي نظرية أخلاقية ولو كانت علمية حاكمة لهذه النظم ولعل لفتة سريعة في واقعنا السياسي تبرهن على هذا فنحن نرى أن من يدورون في فلك الأنا العليا أو المطمئنة بحد تعبيرهم لكلا الفريقين غربيين واسلاميين بعيدون جدا عن عالم السياسة ويبررونه وفق اعتبارات مرجعية للمثل العليا ولطالما استطاعت النظم الحاكمة أن تضمن علاقاتها مع هؤلاء فهم لا يتفاعلون في مجال سيطرة هذه النظم وفي عالمنا الإسلامي تم الكشف عن هذه الارتباطات وهذا الاحتواء، والسبب في غياب تفاعلهم أنهم لا يبالون بفكرة الواقع وبخلق بيئة تفاعلية متوازنة بين الانسان ووجوده

وفي المقابل رأينا أن الشباب الذي يدور في مجال التفاعل الغريزي والمتعة والشخصنة والمظاهر الضيقة الآنية بحكم أنها تنتهي بوفاتهم أيضا لا يشكلون خطرا على النظم الحاكمة بل هم يعتبرون سوقا استهلاكيا رائعا لزيادة الربح ولطالما تقوم الدول باحتوائهم وفق استثمارات وتشريعات تبرر على أنها لأجل الحرية

هنا وقفة لنلاحظ أننا لا نهدف الى تحريم بعض الممارسات هنا وهناك وأقصد في الحيز الفسيولوجي او الحيز الملائكي والمثل العليا، بل يمكننا القول أن التفاعل مع هذه المستويات ضروري ضمن قيم واعتبارات متوافقة مع فكرة الحياة ولولا ضرورة هذا التوافق لما استطعنا التفريق بين الزواج والزنى رغم أن هذه الظاهرة تنشأ ضمن المجال الفسيولوجي ولكن في الأولى يتم تبريره بدافع فسيولوجي وبغائية متجاوزة للإنسان من قبل الله تعالى وفي نفس الوقت من قبل أرقى المثل العليا وهي حفظ استمرارية الانسان وهويته، ولكن في الثانية لا يتعدى الأمر حدود المجال الحيواني والاستجابة المباشرة لتفاعل فسيولوجي

إن ثمرة ما تقدم تدور حول تبرير الموقف اتجاه حقيقة هذه القضية وهو (أنه لا يمكن أن تتحقق الذات إلا ضمن حيز التفاعل الفسيولوجي (الهو) والمثل العليا وبصورة أخرى بين النفس الأمارة بالسوء والمطمئنة فضلا أن حيز تفاعل الأنا (النفس المتزنة أي الذات المتحققة) والنفس اللوامة غير منفصل عن المستويات الأخرى بل تتقاطع حدود هذه الأنا أو الذات المتحققة ضمن مساحة ممكنة) وهي المنطقة المتداخلة بين الدوائر

عندما يقول شخص ما أن لي حريتي بتحديد شخصيتي نقول له بكل بساطة نعم هذا حقق ولكن ضمن مساحة تحققها وفي المستوى الممكن لها والضروري، فلا يمكنني تقبل تلك النماذج التي تدور في الدائرة الأولى أو الثالثة على الأقل لأنها خارج المعقول

الحرية والذات

قد يقول قائل أن الأمر برمته حرية اختيار ولا يمكن تقبل هذا التزمت نقول أن من الممكن تفهم مسألة حرية الاختيار في مجال نظرة الإسلام (وليست نظرة المجتمع المسلم) لهذه المسألة ولا يوجد ما يعزز فكرة الحرية في المجال الغربي والجواب بسيط ،هذا لأنه في الإسلام (الله غني عن العباد) فضلا أن هنالك اليوم الآخر وجنة ونار فمساحة حرية الاختيار في الدنيا مساحة هائلة كما هي مساحة الفرق بين الجنة والنار، ولكن في النظرية الغربية نجد أن الأفراد هم رأس المال لأيديولوجية الحضارة الغربية فهي ترفض حرية الاختيار بشكل كبير وهو ما نراه في مقولة نتشيه فمنظومة القيم التي عززت استغلال (الغير متفوق) فضلا عن صناعة نموذج مسير وفق مسار الحضارة الغربية فان أي حرية اختيار لنموذج مغاير سوى ما يجب أن يكون هو خلل في توازن البناء الغربي فنحن رأينا أن الغرب يقوم ببناء هذه النماذج وفق اعتبارات ومعايير علمية دقيقيه تجريبية تقود الى فهم ظاهرة الانسان بوصفها ظاهرة مغلقة بحدود ومساحة ضيقة فما نراه من حرية اختيار في الغرب هو في حقيقة الامر تنميط للنماذج الممكنة التي تظهر على مساحة التاريخ لمسيرة البناء الحضاري فما كان ممنوعا قبل سنوات اصبح مسموحا ضمن محددات أي كما قلنا أن عملية بناء الحضارة الغربية تقوم على قراءة مستمرة لحالات التفاعل بين الانسان والبيئة وذاته والمجتمع لتثبيت أيديولوجية نسبية، فمنظومة صناعة الظاهرة الإنسانية في المجال الاشتراكي مختلفة عن العلماني في الغرب فضلا عن انصهارهما في بوتقة المادية ورفض الميتافيزيق.

إن المتأمل لديناميكية الايديولوجيا والحضارة الغربية وإتباعها للمنهج العلمي التجريبي يقوده الى ذات التفسير الذي قام به المسيري بتحليله لهذه الأيديولوجيا أنها في النهاية تقوم بسلخ الانسان عن انسانيته، لذا لا أرى فرقا بين العلمانية بكسر العين أو فتحها

وهذا ما أدى الى ثمرة كتابات المسيري التي تقول " أن الحضارة الغربية تقوم على نزع الإنسان من إنسانيته" بمعنى آخر غياب تام للقيم الإنسانية والاجتماعية والمسيري قام بتوظيف آلية تفسيرية اجتماعية وليس على أساس نفسي ولكنني بصورة ما أرى أن التحليل النفسي العميق يمكن أن يؤدي الى نفس النتائج الاجتماعية

والسبب أن منظومة الأيديولوجيا الغربية قامت على اعتبارات لا أخلاقية ودوافع استعمارية والرؤية الدونية للآخر بإيمان بفكرة الداروينية الاجتماعية والعلمية ولو عدنا لكتابات مالك بن نبي لوجدنا أنه أصاب في تفكيك حركة ودوران المجتمع الغربي بانه يدور حول الأشياء والمادة بما في ذلك الاشتراكية والعلمانية أو الدوران حول الذات بمعزل عن منظومة أخلاقية ك الهيومانية، وهو ما دعا لانتشار الأفكار ذات المعنى للنهاية فالبعض ذهب ليثبت حتمية نهاية التاريخ وفق النموذج الغربي أي انه لا يوجد تطور اجتماعي ممكن أسمى أو يفوق الحاضر الغربي وتطلعات الامبريالية.

وهنالك طائفة من المفكرين أطلقوا فكرة الظلامية للحداثة الغربية مما عزز وخلق أفكار أدب العدمية وهو شعور يزداد كل يوم لدى الانسان الغربي ونرى أن النظم الغربية الحاكمة وفق الأفكار الحزبية أصبحت تواجه مصاعب شتى وبات يظهر في خطاباتها التلكؤ الكبير حول هذه الأسئلة كفكرة تلوث الأرض والأسلحة النووية والسعار للازدياد في الأسلحة والسيطرة على

الشعوب الأخرى وازدياد الفقر والبطالة والمجاعات والكثير الكثير من الأفكار التي تنأى الأحزاب الحاكمة من الدخول بها لأنها وبكل بساطة تدرك غياب منظومة أخلاقية بل وإنسانية تحكم حضارتها من البداية حتى اللحظة.

وهنا يمكننا تفهم مقولة بعض من هداهم الله للإسلام بقولهم (أن الانسان الغربي مغيب عن ذاته ولو وجدها سيدرك آفة حضارته على العالم ويحاول انقاذه) نعم نحن نؤمن أن المسألة بهذه البساطة وبهذا المعنى السلس، ولطالما كانت البساطة وتحقيقها يحتاج الى جهد عميق.

فالذات والانا لا تتحقق بحالتها المتزنة والمستقرة الا بشرط وجود واقع متزن وحياة اجتماعية مستقرة وبتفاعل داخلي بين مستوياتها متزن ومستقر، كما في الرسم أعلاه، وإلا فالفوضى هي من سيكون لها الصدارة والانسان هو الخاسر الأكبر.

إن حرية اختيار وتحديد نمط الذات لا يكون اختياريا في مجال تفاعلها مع الواقع والحياة الاجتماعية أبدا، ولعل أفكار فلسفة الديموقراطية والحزبية وتبريرها الضروري نتيجة طبيعية لمحدودية النماذج الفاعلة ضمن هذا المسار، ويكون الأمر أكثر تضييقا في حالة المجتمع الإسلامي لأنه مرهون بقيم وغائية محددة من قبل الشريعة الإسلامية، وهذا ما يبرر ما سبق في عرضنا لرفض المجتمع حرية اختيار الذات فهو مرهون بتقييمها وضبطها وهذه الاحكام تصون مسيرة المجتمع وتحقيق غاياته ولضمان عدم تدهوره

ولكن فيما يخص علاقة الفرد بالله تعالى فالحرية موجودة وله الاختيار وباليوم الآخر سيكون إما في جنة وإما في نار، فالكافر حدوده واضحة على الأقل فيما يخص موضوعنا تكون ذاته متطرفة في حدودها بين إحدى المستويات إن تحققت، وكذلك المنافق او المشرك والساحر والزاني والكثير من الصفات التي يختزلها الانسان في تاريخه.

ولكنني عندما أتأمل أحاديث المصطفى عليه السلام التي تقوم على بناء الذات من خلال تحديد كيفية المأكل والمشرب بل وأدنى من ذلك وأكثر أرى أنها كلها تدل على اعجاز تشريعي وحقيقة موضوعية بأن الإسلام وسطي فالإنسان وسطي في تفاعله الداخلي بين مستويات النفس وأصنافها ووسطي بتفاعله مع الخارج وموارد الطبيعة ووسطي مع المجتمع والوسطية بهذا المعنى تشير الى تحقيق التوازن.

فالمسلم هنا مرهون بحيز ضروري لتحقيق ذاته المسلمة بأن تكون ضمن حيز النفس الامارة اللوامة التي تصيب وتخطىء.

نموذج الذات المسلمة

لقد بينا وبشكل مختصر حدود تشكل الذات وحاولنا إثبات فرضية أنه لا يوجد أنا بالمعنى الساذج والذي يشير بشكل ما أن هذه الأنا هي من قامت ببناء حدودها ونموذجها، وباختصار نقول إن العلم يؤكد أن هذه الذات لا تتحقق إلا في مجال وحيز معين فالنفس الغربية استطاعت تلبية شروط الذات وفق طابعها الحضاري الخاص بالضرورة والنفس المسلمة لا تمكن صاحبها من التعبير أنها مسلمة إلا وفق مجال وحيز تفاعلها الخاص بالضرورة فضلا أن الانسان المسلم لا يملك من القوة لاستخدام هذه الأنا بشكل ذاتي واهواء شخصية فكل جزئية من كيان حدود وشكل هذه الذات

واحتمالات ومجالات تفاعلها تكمن معيارية ومرجعية وغائية شرعية (قرآن وسنة) أو ضرورة فقهية لا تقبل الاهواء

قد يشعر البعض هنا أنه لا يمكنه حتى لفظ أنا نقول نعم وبكل بساطة أنت فقط عبد لله وبهذه الرؤية يمكن تفسير الكثير من الآيات الكريمة التي ذكرت في القرآن فالإنسان خلق لغاية متجاوزة لفكرة حريته وهي العبادة والعباد أو العبد منوط بدور وظيفي محدد وهو حمل الرسالة وتحقيقها

ففكرة الأنا وتحقيق الذات فكرة أسطورية على الأقل في الحياة الدنيا

ورسائل سريعة لشبابنا في خضم صراعات الأمة وأكثر مجالاتها إلحاحا نقول لهم

لا يمكن لأنا مسلمة أن تقول (أنا لا شأن لي بالسياسة) فهنا نرى تغيب جزء هام من هذه الذات وهو تغييب الواقع الضروري لتحققها ويتفق على هذا العلم فتغييب الواقع هو تغييب لمجال تحقق الذات أو الأنا، وهذا النأي بالنفس عن السياسة والجوانب الأخرى الهامة في حياة المجتمع يسمح وبكل بساطة لسيطرة الشر والطامعين والمستبدين على حساب الخير فلطالما أنك موجود لا بد من تحديد موقف هذه الأنا في المجال السياسي والاقتصادي والثقافي للأمة، لا يمكنك النأي بنفسك ربما تنقذها في الدنيا ولكنك مسؤول يوم القيامة وأحاديث رسولنا واضحة فيمن لا يقف مع الحق.

ولا يمكن لهذه الأنا أن تقول (سأجاهد في زمن لا جهاد فيه) أو العكس فهنا نرى هذه الذات تفترض أنها متحققة ولكنها بالعكس فالمجتمع هنا مغيب بشكل كامل ويتفق العلم على هذا فتغييب المجتمع هو تغييب لمجال تشكل الذات وهذا التغييب يمنع تشكل الأنا، وهذا النأي عن النفس او الذات يخلق ظاهرة التطرف والتشدد ويضع المجتمع في إشكاليات هو بغنى عنها.

ولا يمكن لهذه الذات ألا تكون فاعلة بالشكل الصحيح طالما هي موجودة فحدود وديناميكية تفاعلها ضمن حيز تحققها ومجاله محدد بضوابط وقواعد شرعية وضرورة فقهيه.

فمثلا عندما نرى عزوف بعض الشباب عن مشاركة أزمات الأمة المتحققة في بلادنا والمشاركة في تحقيق واقع وحياة اجتماعية مستقرة فنحن في الحقيقة نرى عزوفا عن الذات فضلا عن العزوف عن تحقيق (الأنا)

فنحن نكتب ونشارك ونحاول لا لتحقيق هدف ما على الأقل لا نملك هذا (فكل على قدر استطاعته) ولكننا نمارس هذا النشاط لنستطيع القول في أي وقت أننا (أنا)! فهل أنت أنت.